

حركية المشهد في القرآن الكريم

العشابي عبد القادر

أستاذ محاضر

جامعة سيدي بلعباس / الجزائر

تعدّ ظاهرة التصوير الفني في القرآن الكريم وسيلة من وسائل التعبير عن الأغراض الدينية والدينيوية، يمتزج فيها الجمال بالعقيدة، إذ طاف كتاب الله حول الكون والآفاق بالكثير من الآيات والمعجزات، وقد جال في أغوار النفس الإنسانية بكل ما تحمله من ميزات إذ تأرجح بين الخير والشر، فهو كل متكامل جاء دعوة للعالمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وحضوضهم من العقل والفكر والحس، فمنه من خاطب العقل ليدعن للمنطق والدليل، ومنه من اتجه للقلب ليتفتح للعبارة والموعظة، كما اتجه للحس دعوة منه إلى تأمل قدرة الخالق في إعجاز الخلق، ومنه ما دق أسوار الوجدان ليقف عند حدود مواطن الجمال والإبداع¹.

يصور الله لنا الكثير من هذه القدرات في لوحات ومشاهد تعج بالحركة وتنفض بالحياة، فهو «يروم رفع المشاهد العالم الأخراوي، يعتمد إلى ضرب من التصوير، يقرب هذه المشاهد، فيجعلها حاضرة بين يدي المتلقي، ليس بينه وبينها فكر، ولا تخمين، ولا وضن»². إذ يقتزن التصوير بالمشاهدة من خلال دقة تشخيص المشاهد إذ تصبح أمام المرء شاخصة حية مفعمة بالحركة والحياة، فالمخلوق مهيء بالمحافظة على ما أدركته حواسه، وقد يزيده عليه تخمينه الذي اختلطت به أنانيته فيكون المصور ذا صبغة ذاتية، إذ لا جرم أن التصوير «يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، فيجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، وإدراك الجمال الفني الرفيع بشيء يحسن الاستعداد لتلقي التأثير الديني حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، مستوى التعبير عن العقيدة، وحين تصفوا النفس لتلقى رسالة الجمال التي تبلغ في العقيدة حدّ الكمال»³.

قرب القرآن الكريم المشاهد إلى ذهن المتلقي لتزيده خشوعا وإيمانا، فهي تختلج دواخله وتستقر داخل وجدانه، وتسكن روحه مصحوبة بالترقب والتطلع، فهكذا تكون المشاهد في القرآن الكريم «أرفع النماذج التي يمكن للدارس أن يستند إليها في تقرير فعالية المشهد في التأثير وتحديد العلاقة باللغة، وهي التنوع الموضوعي، والتلون الشكلي ما يجعل

النماذج على وفرتها تستغرق قضايا المشهد الفني في كليته، فيكون منها التعريف الحق الذي يمكن أن يلحقه بالمشهد، ليتحل مكانته في قضايا الكتابة الأدبية»⁴.

جدد القرآن الكريم المشهد فنفض عليه رتبة الجمود، وزرع داخله روح الحركة والحياة وصبغه برؤية جديدة خلافا لما آل إليه الشعراء القدامى الذين كانوا سابقين في تجسيد هذه التقنية في أعمالهم الإبداعية، غير أن القرآن الكريم سما فوق كل تفكير وتجاوز كل خيال وراج يجوب مواطن وخبيا لم يستطع الشاعر الجاهلي الفحل الوقوف عند حدودها ودقائقها ولطائفها. فانبهر ووقف عاجزا أمام البراعة اللغوية، وجسامة التصوير القرآني، فوصف تارة بالسحر، وتارة بكلام الجن، وأخرى بالأساطير. وحين صيّر القرآن أرباب الفصاحة مشدوهين مقهورين نعتوه بالكهانة والمروق عن قوانين البشر، فكان لزاما على القرآن الكريم «إذا ما إذ يقتزن التصوير بالمشاهدة من خلال دقة تشخيص المشاهد إذ تصبح أمام المرء شاخصة حية مفعمة بالحركة والحياة، فالمخلوق مهيء بالمحافظة على ما أدركته حواسه، وقد يزيده عليه تخمينه الذي اختلطت به أنانيته فيكون المصور ذا صبغة ذاتية، إذ لا جرم أن التصوير «يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، فيجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، وإدراك الجمال الفني الرفيع بشيء يحسن الاستعداد لتلقي التأثير الديني حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، مستوى التعبير عن العقيدة، وحين تصفوا النفس لتلقى رسالة الجمال التي تبلغ في العقيدة حد الكمال»⁵.

قرب القرآن الكريم المشاهد إلى ذهن المتلقي لتزيده خشوعا وإيمانا، فهي تختلج دواخله وتستقر داخل وجدانه، وتسكن روحه مصحوبة بالترقب والتطلع، فهكذا تكون المشاهد في القرآن الكريم «أرفع النماذج التي يمكن للدارس أن يستند إليها في تقرير فعالية المشهد في التأثير وتحديد العلاقة باللغة، وهي التنوع الموضوعي، والتلون الشكلي ما يجعل النماذج على وفرتها تستغرق قضايا المشهد الفني في كليته، فيكون منها التعريف الحق الذي يمكن أن يلحقه بالمشهد، ليتحل مكانته في قضايا الكتابة الأدبية»⁶.

جدد القرآن الكريم المشهد فنفض عليه رتبة الجمود، وزرع داخله روح الحركة والحياة وصبغه برؤية جديدة خلافا لما آل إليه الشعراء القدامى الذين كانوا سابقين في تجسيد هذه التقنية في أعمالهم الإبداعية، غير أن القرآن الكريم سما فوق كل تفكير وتجاوز كل خيال وراج يجوب مواطن وخبيا لم يستطع الشاعر الجاهلي الفحل الوقوف عند حدودها ودقائقها ولطائفها.

ما أراد أن يدخل في اللغة العربية فكرته الدينية، ومفاهيمه التوحيدية، أن يتجاوز الحدود التقليدية للآداب الجاهلية والحق أنه أحدث إنقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير»⁷، حيث وجد العرب في معاني القرآن وصوره، وفي الكيفية التي نسجت بها الألفاظ والعبارات وحبكت بها الحروف في تشكيل الكلمات، والكلمات في سبك الجمل ما شدّ انتباهه، وكأنها لآلئ نسجت بخيط رفيع، فراحوا ينهلون منه معارفهم ويجددون طريقة سبك معانيهم منطلقين نحو رؤية جديدة للحياة الأدبية بعامة والشعرية بخاصة.

مما لا شك فيه أنّ للقرآن الكريم منطقاً الخاص وطريقته المميزة في التعبير عن موضوعاته، حيث زواج بين مخاطبة الحس والوجدان، وذلك بواسطة التصوير فهو «يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة»⁸.

تناول القرآن الكريم مختلف الموضوعات التشريعية والعقائدية وعبر عنها من خلال تحويل المجردات إلى محسوسات، يدركها الحس البشري ويتعامل معها، وينفعل بها الوجدان الإنساني. وهكذا طريقته في تصوير المعاني المجردة والحالات النفسية وإبرازها في صور حركية سواء في المشاهد الطبيعية أو الحوادث أو مشاهد خلق الكون والقيامة، فهي «لوحات تصويرية حية تبدو شاخصة للعيان بأشكالها الحية وهياتها التي تلمح بالحركة وبخطوطها، وألوانها، وظلالها، بإجمالها وترخيصها ودقائقها وتفصيلها، وفي هذه اللوحات القرآنية يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني في كلّ متكامل لا ينفصل»⁹.

يتجلى تشكيل المشهد في القرآن الكريم تصويراً للكون كلّ دنياه وأخراه، أوله وآخره، تقوم به الألفاظ جامدة تأخذ تراكيبيها ومعانيها من أبجدية الحروف تنساق وراء «وحدة موضوعية، متناسقة متكاملة، وأدرك الرابط العام، والخيط الدقيق المتين الذي يشدّ جميع آياته وسوره إلى بعضها البعض، في تناسق موضوعي وفني معجز»¹⁰، وهذا ما جعل الآيات الكريمة مترابطة وفق آلية تشدّ لبّ المتدبر لهذا التناسق.

يمتاز القرآن بوحدة متجانسة متكاملة، وكأنّ آياته تشكل عقداً متناسق الحبات تدعو القارئ إلى التأمل والتدبر في إبداعه غير المتناهي الفصول، والمتعدد الدلالة، فارتفع خالداً وسراً لا يفكّ ملغزه إلاّ الأصفياء، على الرغم من تعدد قراءاته وتأويلاته.

تعددت مشاهد القيامة في القرآن الكريم ، بل هي من أبدع مجالاته تصويراً، بيد أن هذه المشاهد تنطوي على دلالات دينية محضة من حيث مغزاه و موضوعه، إلا أنها لا تخلو من دلالات فكرية وخلقية وجمالية، إذ تتصل حياة الدنيا بالآخرة اتصالاً وثيقاً فهي امتداد لها أو نهاية حتمية لا مفرّ منها¹¹.

يعد عنصر الحركة من أهم مقومات التصوير التشكيلي و أبرزها في بناء المشهد ، وتعرف بأنها «انتقال الجسم من مكان إلى مكان آخر أو انتقال أجزائه»¹². ولأن العرب تعين الأشياء بأضدادها، يرسم أماننا التعريف الذي يبرز الحركة لابد من معرفة الثبات الذي يلزم السكون والجمود والاستقرار، ونقيضه الحركة إذ هي الاهتزاز والانتقال الذي يرتبط بكل الموجودات، سواء كانت فيها آلية، أو بتدخل وسيط ليجعلها إلى عكس ماهيتها التي عرفت بها، وهي «من بين أهم مثيرات الانتباه في المجال البصري، فمهما كانت حالة الاستغراق الزمني التي يعيشها الفرد فمن المؤكد أن تستشيره أي حركة يدركها مهما كانت درجة بساطتها والحركة هي فعل ينطوي على تغيير يقابله رد فعل. ومن غير الضروري أن يجيء رد الفعل على هيئة حركة ملموسة، فقد يكون رد فعل داخليا يثور على هيئة أحاسيس وانفعالات»¹³.

تناول التعبير القرآني تصوير الحركة بأنواعها واتجاهاتها وكل مقاييسها في الظواهر الكونية والمشاهد الطبيعية، والكائنات الحية، لتحقيق الغرض الديني والعقائدي، فإنه في نفس الوقت يتناول أحدهم أهم مقومات التصوير الجمالي وأبرز سمات التعبير الفني الخالص، ذلك هو عنصر الحركة الذي تضيء على موضوع التعبير القوة والفاعلية. إنها قوة التأثير في نفس المتلقي ووجدانه، وقوة التحريك لحواسه وخياله، وقوة الترسخ لفهمه وتصوره واستيعابه لموضوع التعبير، وهنا تتجلى معجزة القرآن وعظمته عندما يلتقي في آياته المحكمات وفي كل صورة يرسمها الغرض الديني مع الغرض الفني في وحدة يسودها التوازن والاتساق والانسجام المربوط بترتيب وتنظيم طبيعي وفيزيائي يوصف بالدقة المتناهية، ما يوصف بتقدير العزيز الحكيم.

وردت لفظة الحركة في الكثير من المواضع والآيات بالقرآن الكريم سواء بلفظتها المباشرة أو بمختلف المترادفات من الكلمات والألفاظ التي ترد بنفس معنى الحركة مصداقاً لقوله تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾¹⁴

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾¹⁵

﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا خَبِيثًا﴾¹⁶

يُبهَر المتأمل للخطاب القرآني بشقيه المحكم والمتشابه ليلحظ أن تصوير الحركة ظاهرة أم مضمرة، هو سمه غالبية في التعبير القرآني، إنه تصوير جمالي أخاذ، فهي حركة ترتفع بها نفس الحياة وتعلو بها حرارتها «وهذه الحركة ليست مقصورة على مشاهد القصص والحوادث ولا على مشاهد القيامة، ولا صور النعيم والعذاب أو صور البرهنة والجدل، بل عنها لتلحظ كذلك في مواضع أخرى لا ينتظر أن تلحظ فيها، فهي حركة حية تنبض به الحياة الظاهرة للعيان أو للحياة المضمرة في الوجدان، وهي التي يسير عليها التصوير في القرآن لبث الحياة في شتى الصور مع اختلاف الشيات والألوان»

وردت الحركة في الخطاب القرآني على أوجه عدة، فلو نشاء لنميزها في الآيات، لظهرت الحركة في الآية الأولى على أنها نهي وهي حركة مدمومة تجلب لصاحبها المتاعب غير مضمونة العواقب، وهي حركة قد تكون طبيعية إنسانية قليل من يكون بإمكانه التحكم فيها، ثم تظهر الثانية حركة علوية ليست في مقدور الإنسان، وإنما هي صنع إلهي ليقدم به الإنسان، حين مد له الظل، وهي حركة تسخر للإنسان خدمة جليلة يظهر له فيها أن حركة الكون مسيرة لمثل هذه الحركة، والثالثة أمر فيها برهان ومعجزة إلهية إذ تحريك النخلة يجعل التمر يتساقط لتسهيل عملية الولادة.

تنوّعت المشاهد في القرآن الكريم، من مشاهد يوم القيامة، والبعث، والحشر، والحساب ثم الجزء بالشواب والعقاب، وبما يتضمنه من مشاهد أهل الجنة ونعيمهم، وأهل النار وعذابهم مما لا يتسع هذا المبحث لحصرها وتناولها بالشرح والتفصيل.

﴿وَيَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلَّ أَتَوْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ (88)﴾¹⁸.

تصوّر الآية الكريمة نفخة الفزع، وهي أولى مراحل القيامة، حيث تتلوها نفخة الصّعق وهي الموت، ثم نفخة النشور وهي البعث من القبور والقيام لرب العالمين. وفي هذا المشهد نستشعر حركة صاحبة على عدة مستويات وبإيقاعات متعدّدة، فلنا أن نتصوّر حركة النفخ وما يصدر عنها من أصوات وما تتطلبه من جهد وقوة. ثم حركة الفزع بما يصاحبها من ضوضاء وتحركات في كل اتجاه¹⁹.

حقيقة إنها لوحة بانورامية مستعرضة تصوّر يوم القيامة في مشهد حيّ يموج بالحركة والديناميكية والصخب. وتفيض بالمشاعر الانفعالية والخلجات النفسية لبني البشر. «وقد شاء الله جلّت قدرته أن تكون الطبيعة هي الجامعة الكبرى التي تخرج أفواج العلماء والفنانين في الوقت ذاته ؛ العلماء الذين يتفحصون ويجزّون ويكتشفون من أجل رقي العلم الإنساني وإدراك السنن والنواميس الطبيعية التي يقام عليها صرح العلوم التطبيقية المختلفة»²⁰.

حين ... - - - - - ر - ر - - - - - كليل الفني هو الحركة التي لها أثر كبير في مجال تشكيل الصورة وفي فنياتها سواء كانت هذه الحركة ظاهرة أو مضمرة.

مكتبة البحث:

1. ينظر: التصوير الجمالي في القرآن الكريم، عيد سعد يونس، عالم الكتب، القاهرة، ط01، 2006، ص13.
2. شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، حبيب مونس، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، يناير 2003، ص129.
3. التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط17، 2004، ص119.
4. شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، حبيب مونس، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، يناير 2003، ص130.
5. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ج02، ط02، 1974، ص216-217.
6. التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط17، 2004، ص28-29.
7. التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط17، ص36.
8. نظرية التصوير عند سيد قطب، صلاح عبد الفتاح، دار القلم، ط04، 1977، ص134.
9. ينظر المنهج الفني الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، مصر، ص253.
10. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، 1993، ص146.
11. التكوين في الفنون التشكيلية، عبد الفتاح رياض، دار النهضة العربية، القاهرة 1973، ص97.
12. سورة القيامة، الآية 6.
13. سورة الشورى، الآية 33.
14. سورة مريم، الآية 25.
15. التصوير في القرآن الكريم، سيد قطب، م.م.س، ص63.
16. سورة النمل، الآية 87-88.
17. ينظر: التصوير الجمالي في القرآن الكريم، عيد سعد يونس، عالم الكتب، ط01، 2006، ص177-178.
18. شيء عن الموقف الجمالي في الإسلام، عماد الدين خليل، مجلة العربي، ع238، 1978.